مراجعة كتب

قراءة في «بحيرة وراء الريح» (*)

يحيى يخلف يكتب الرواية الفلسطينيّة التي لم تكتب

عبد الرحمن مجيد الربيعي

- ١ -

قبل أسابيع أنهيت قراءة رواية **بحيرة وراء الريح** للروائي الفلسطيني الصديق يحيى يخلف. وبهذه القراءة استكملت ما قدّمه الروائي (فصولاً) من روايته هذه على صفحات مجلّتي **الآداب** و**اللوتس**، واستطعتُ أن أتابع مسار الرواية وأحداثها وشخصيّاتها.

لكن رواية يحيى يخلف، شأنها شأن بعض الروايات العربيّة التي قرأتها، قد وضعتني أمام حيرة كبيرة وأمام سؤال محدَّد: «كيف سأكتب عنها؟»؛ هذا، على الرغم من أنّني كاتبُ نصّ قبل أن أكون ناقداً ولست ملزماً في الكتابة أو عدمها، ويكفي أنّني «تمتّعتُ» بقراءتها. لكن المسألة تتجاوز ذلك وتجعلنا كزملاء نمارس كتابة فنٍّ وليد في أدبنا العربي تقع علينا مسؤوليّة «التبشير» و«التعريف» بالعمل المميّز الذي قرأناه. هذه الحالة عشتها أيضاً قبل هذا مع رواية عراقيّة كُتبت ونُشرت خارج العراق هي **ممرّات الصمت** للروائي العراقي الصديق فاضل الربيعي.

- ٢ -

تمتدّ تجربة يحيى يخلف على مساحة ربع قرن أنجز خلالها أعمالاً في الرواية والقصّة القصيرة. ولا يمكن لدارس الرواية العربيّة أن يتجاوز تجربته الهامّة **نجران تحت الصفر**، تلك الرواية التي قدّمت نموذجاً من القمع الرهيب الذي يتمّ في أحد بلدان الخليج العربي. وتنفرد روايته هذه عن رواياته الأخرى بكونها رواية عن الهمّ العربي، عن مشكل عربي ـ مازال ساخناً ويتجدَّد أسلوباً ومازال أيضاً مادّة ثريّة للرواية العربيّة ـ وهو «القمع».

إنَّ جُلَّ الروايات الفلسطينيّة المنشورة

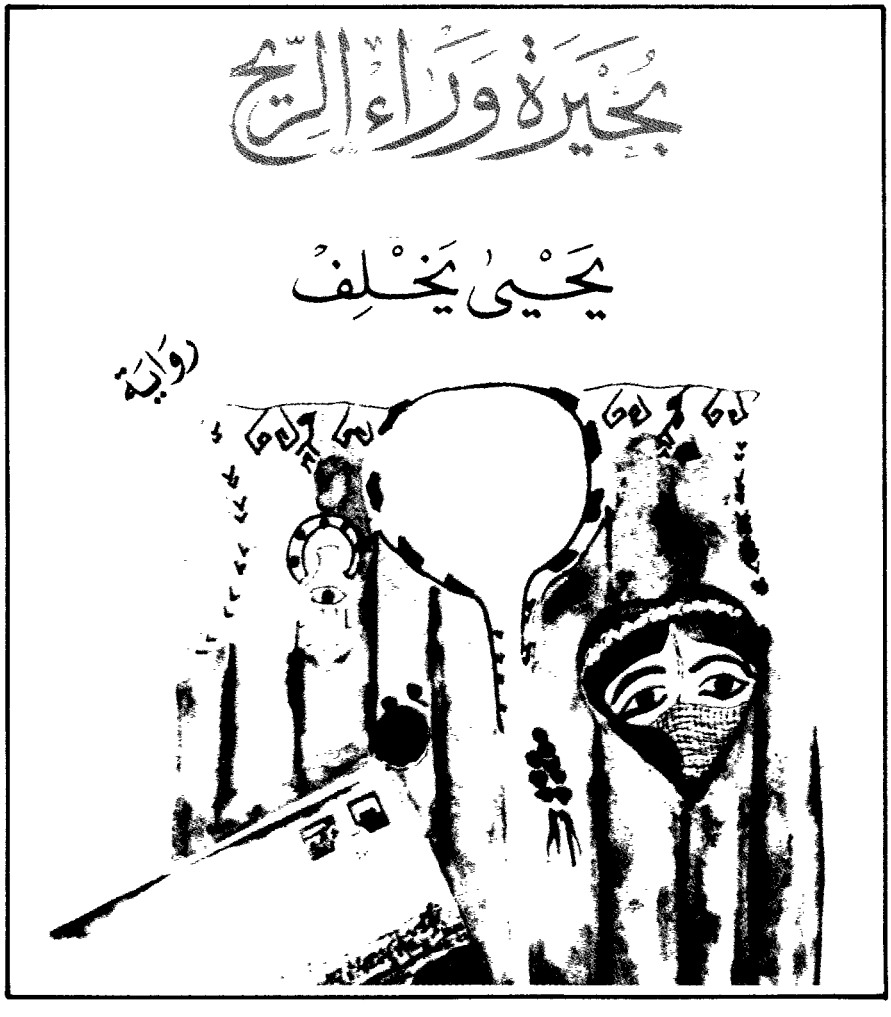

(*) **بحيرة وراء الريح** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢).

اتخذت من مرحلة ما بعد التقسيم(*) وإنشاء الكيان الصيهوني خلفيّةً تاريخيّةً لها موزَّعةً ما بين أحداث تدور داخل الوطن المحتلّ وأخرى لفلسطينيّي الشتات وسكّان المخيّمات. وقد تجلّى ذلك في روايات غسّان كنفاني وإميل حبيبي وسحر خليفة ورشاد أبو شاور وليانة بدر وغيرهم، لا بل إنَّ الروائي الفلسطيني صار يكتب عن إشكالات الثورة وما يدور داخلها كما فعل رشاد أبو شاور، وأيضاً فصول الرحيل الفلسطيني من لبنان إلى ميناء بنزرت التونسي بعد الاجتياح الصهيوني للبنان، ومثالي هنا من رشاد أبو شاور كذلك وروايته **الربّ لم يسترح في اليوم السابع**.

ومضت الرواية الفلسطينيّة إلى الانتفاضة المتأجّجة منذ تسعة وخمسين شهراً فأفادت منها وكرّست سحر خليفة روايتها **باب الساحة** لهذا الموضوع.

لكنَّ يحيى يخلف في **بحيرة وراء الريح** كتب الرواية الفلسطينيّة التي لم تُكتب من قبلُ؛ وأعني بها الرواية التي تتحدَّث عن مرحلة ما قبل التقسيم، وكيف هيّأ الصهاينة وأولياء أمرهم الوضعَ الدولي والفلسطيني ليستوعب تأسيس كيانهم بقرار دولي.

- ٣ -

إنَّ يحيى يخلف قد كتبَ روايته في موضوع لم تتطرّق إليه الرواية الفلسطينيّة، وهذه مسألة تُسجَّل له وهي أيضاً بدت وليدةَ حاجةٍ فعليّة. ذلك أنَّ معظم الأدباء الفلسطينيّين بعد تأسيس الكيان الصهيوني وجدوا أنفسهم تحت الاحتلال المباشر أو مقذوفين في الشتات، وقد شكّل وضعُهم الجديد هذا مادّتَهم الروائيّة والقصصيّة والشعريّة، وشكّل - بمعنى أشمل - المادّةَ الرئيسيّةَ لإبداعهم.

وجاءت نكسة حزيران (جوان) عام ١٩٦٧ ليتّسع الموضوع في هذا المجال. فكانت رواية غسّان كنفاني الرائعة **ما تبقّى لكم** التي أخذ فيها موضوعاً جديداً ضمن مساره الروائي المميّز الذي كان بداية تألّقه **في رجال في الشمس**. وهو هنا يتلاقى مع يحيى يخلف في الكتابة عن القمع، ولكن عند كنفاني القمع الخليجي - والكويتي تحديداً - ضدّ الفلسطينيّين، وكان عند يحيى يخلف في **نجران تحت الصفر** القمع السعودي تحديداً كذلك الذي يتمّ باسم الدين.

- ٤ -

المسألة الثانية التي تسجَّل ليحيى يخلف في **بحيرة وراء الريح** هي انطلاقه من نقطة مهمّة، مفادها أنَّ القضيّة الفلسطينيّة قضيّة عربيّة ومسؤوليّة قوميّة رغم أنَّ الفلسطينيّين هم أصحاب الجرح وهم مَنْ وقع عليهم الحيف. لكنَّ ما وقع لهم أربكَ الحياة العربيّة كلّها على مدى أكثر من أربعين سنة.

إنَّ الأبطال الأساسيّين لرواية يحيى هذه هم: نجيب (فلسطيني)، أسد الشهباء (سوري) وعبد الرحمن (عراقي): ثلاثة شبّان انضمُّوا إلى جيش الإنقاذ دفاعاً عن أرض فلسطين التي راحت تصول وتجول فيها العصاباتُ الصهيونيّة. وتلك الفترة تعيدنا إلى كتابات وشهادات ظهرت فيما بعد عن مساهمات عشرات المجاهدين العرب الذي مضوا إلى أرض فلسطين من المغرب والجزائر وتونس إضافة إلى بلدان الجوار. يحيى يخلف في **بحيرة وراء الريح** وثّق هذه الوحدة العربيّة دفاعاً عن أرض عربيّة مهدّدة.

وإذا كان هؤلاء الشبّان الثلاثة يشكّلون محور أحداث هذه الرواية فإنَّ هناك شخصيّات كثيرة ساهمت في هذه الأحداث، مثل أحمد بيك القائد في جيش الإنقاذ، وهو يمثّل العسكري التقليدي الذي يهمّه إرضاء رؤسائه قبل تأدية واجبه بنقائه الوطني وشرفه العسكري حتّى لو اضطرّه ذلك إلى الكذب.

ويتابع الروائي الكثير من التفاصيل سواء ما تعلّق منها بالمواجهة المباشرة مع العدوّ مثل معركة «طيرة تسفي» الخاسرة، أو قتل عبد الكريم لجنديٍ صهيوني بالخنجر، وقبل ذلك الهجوم على القرية وقتل عدد من أبنائها ومنهم قاسم النايف زوج فطيمة.

كما يتابع الروائي كذلك تفاصيلَ تتعلّق بحياة الشخصيّات الثلاث الرئيسيّة مثل حكاية «أسد الشهباء» وحبّه لفتاة شغف بها وجزئيّات تلك العلاقة التي أسهب فيها المؤلّف. وكذلك حكاية نجيب ولماذا اختار الانضمام إلى جيش الإنقاذ، وهكذا.

في سرد كلّ هذه التفاصيل احتاج المؤلّف إلى أن يعود إلى معلومات تتعلّق بالأسلحة واللباس والأماكن وأسمائها، كلّ هذا تمّ بشكل توثيقي حتّى ترتفع الرواية إلى مستوى الشهادة الوطنيّة والوجدانيّة الصادقة.

وقد ذكر المؤلّف في حديث جرى بيني وبينه حول هذه المسألة بالذات بأنّه احتاج إلى كثير من الجهد لجمع المعلومات هذه، الأمر الذي يؤكّد أنَّ الكتابة الروائيّة في موضوع كهذا مسؤوليّة صعبة وتحتاج إلى

(*) ذكر لي الأصدقاء أنَّ هناك تجربة روائيّة فلسطينيّة لفيصل حوراني - كما أتذكّر - كان زمنها ما قبل التقسيم أيضاً.

جهود ومراجعات مضاعفة رغم أنَّ يحيى يخلف قد كتب عن فترة لم يعِ تفاصيلها وإنَّما حملتها له الذاكرة الفلسطينيّة والعربيّة، ذاكرة الآباء والأمّهات. وأقول بكثير من الحماس إنَّ هذه الفترة إنْ لم يُكتب عنها الآن فإنّه لن يُكتب عنها غداً ضمن تراكم المستجدّات ومجيء أجيال فلسطينيّة جديدة؛ علماً بأنَّ الروائيّين الصهاينة فعلوا ذلك انطلاقاً من مشروعهم ورؤياهم.

- ٥ -

يذكر الروائي أنَّ الكتاب الذي صدر هو الجزء الأول من ثلاثيّة، وعرفتُ منه أنّه قد بدأ بكتابة جزئها الثاني فعلاً وبحماس، مادام الجزء الأوّل قد وجد صدى وقبولاً طيّبين.

وقارئ هذا الجزء يحسُّ بأنَّ مدى شخصيّاته مازال ممتدّاً وأنَّ الكثير من التساؤلات التي أطلقها مازالت تبحث عن أجوبتها ومنها ما ستؤول إليه مصائر الفتية الثلاثة الفلسطيني والسوري والعراقي.

وقد عني الروائي بالرموز، والبارز منها «الدرع» وما نسج حوله من حكايات وكيف دار بين أكثر من عسكري ومقاتل من أحمد بيك إلى العقيد نور الدين الذي استشهد وهو يرتديه لأن الإصابة كانت في رأسه. والبارز من الرموز كذلك هو الطفلة التي عَثَرَ عليها السائق حامد أبو حامد وحملها إلى بيته ولا شك أنّ القارئ بشوقٍ إلى ما يمكن أن يكون لها من دور في الجزئين التاليين من الرواية.

- ٦ -

ختاماً لا بدَّ لي من أن أتساءل ـ وهذه مسألة تتعلّق بتقنيّة الرواية ـ : لماذا أفرد المؤلّف فصولاً تحت اسم «من أوراق عبد الرحمن العراقي»؟ ولماذا هو دون غيره، علماً بأنَّ هناك شخصيّتي «أسد الشهباء» و«نجيب» المهمتين، وهما شخصيّتان تستكملان هذا المحور الثلاثي الأساسي في الرواية؟

لقد قدّم لنا المؤلّف المعلومات عن «أسد الشهباء» وترك عبد الرحمن العراقي يتحدَّث عن نفسه في أوراقه، فلماذا فعل هذا؟

إنَّ المسألة تحتاج إلى مبرِّر حتَّى لا تكون خللاً في بناء الرواية، ولعلَّ الجواب في الجزئيْن اللاحقيْن منها.

أمَّا لغة الرواية فهي لغة نقيّة غير مصنوعة، وهي لغة يحيى يخلف التي تميّز بها، لغة عمليّة تؤدّي دورها، فلا تصبح غاية ولا تقع في الركّة. إنَّها لغة روائيّة مقنعة.

- تونس -